بقلم: د. صبري مسلم *

حورية العاشق والمنظور الشعري

لم يعد الحدّ الفاصل بين تقنيات السرد وآليات القصيدة حاسماً ومنيعاً، إذ تتماهى هذه التقنيات بتلك الآليات وعلى نحو لافت، فإذا كان مصطلح المنظور السردي ما يكشف عن وجهة نظر الراوي والشخصيات داخل النص السردي، فإن مصطلحاً كهذا يمكن أن يكشف الرؤى المتضمنة في القصيدة، وعبر عالم القصيدة ونسيجها الفني الشفاف، ومن خلال مصطلح المنظور الشعري.

ففي قصيدتين للشاعر البحريني علي عبدالله خليفة، وقد وردتا في مجموعته «حورية العاشق» عنوان القصيدة الأولى «في التجلي والتضاد» وعنوان الأخرى «أرنبة البياض» نلمس موقفاً ضمنياً للشاعر إزاء ظاهرة التضاد في هذا الكون، تأمل قوله في سياق قصة للخليقة يشكلها النص في قصيدته الأولى:

«يؤسس عهد وعهد يبيد
أسويه بحراً عميقاً بعيد الترامي
وأخزن فيه التضاد . وأنشئ فيه العوالم
أجعله كانبثاق الصباح جلياً، وأسدل منه التوجس
أخلق فيه الستور، وأحجب أسراره في غموض بهيم
وأجعله فتنة مشتهاة»

إذاً ومن هذا المنطلق فإن النقيضين (التآلف والتضاد) ينصهران في بوتقة هذه القصيدة، ومن منظورها الفكري لأن الله جل شأنه:

«شاء تجلي اختزال المعاني
فأنشأ في الكون هذا التآلف، هذا التضاد
فكانت عذاب الجوى سكينة هذا الفؤاد»

ومنذ عنوان القصيدة الأولى «في التجلي والتضاد» نلمس بعض تأثيرات النسق الصوفي ولا سيما في ذاكرة مفردة «التجلي»، ولكن الشاعر لا ينقل هذا النهق نقلاً حرفياً، وإنما يطبعه بطابعه الخاص عبر هذا التشكيل القصصي، وهذا الحوار الذاتي المعمق المعبر في حقيقة الأمر عن رؤية الشاعر وطبيعة فهمه للوجود الإنساني وكينونته الراسخة. لا سيما أنه يمزج بين الوجود الإنساني وظواهر الكون المتنوعة، ما يحيل مرة أخرى إلى بعض أفكار المتصوفة. بيد أن الشاعر لا ينقل تهويماتهم وفهمهم الخاص بقدر ما يخفي رؤاه، هو الشاعر الذي يشرع كل النوافذ إيماناً منه بالتوحد أو التآلف:

«وأجعل أمواءها في مهب جميع الرياح
بقوة جذب تكون تشطر التوحد عند الخليقة».

وهذا هو قطب التوحد، وأما القطب الآخر فإنه قطب التضاد المغلف بغموض هذا الكون والمندغم بأسراره.

وإذا كان الحضور الإنساني له ما يبرره ويستدعيه في النص الأول بقرينة قول الشاعر:

«فقال: تجلّى أسوي حديقة عشق ، وأجعل رضوانها للبرايا مفاتيح كل الجنان
وأنفخ في الطين ناراً، أصيره كوكباً مستثاراً
وأعطي له ما يفوق التوهج في الاشتعال
وأوصل منه التماع النهى بمكنون ما يحتويه المدار».

إنه الذهن البشري فخر الإنسان ومصدر زهوه ولكنه مكمن مكابداته أيضاً، إلا أن الصورة مختلفة تماماً في النص الآخر «أرنبة البياض» الخائفة الفزعة المطاردة دوماً، إذ إن الكينونة الإنسانية تستحيل فيها إلى محنة حقيقية تحيل إلى ما يقترب من هذه الرؤية في التراث الأسطوري والحكائي عامة:

«صدفة تستقر على خشبة طافية
كاد ثقل الوقوع يغوص بها، خفة الأرنبة، وازنت واستقرت
وجمع الكلاب يحاصر من كل صوب، يواصل تهديدها بالنباح
ولا يستطيع الوثوب إليها، فيشتد فيه سعار الضواري»

وهنا يطل علينا التضاد عبر رؤية الشاعر للحضور البشري في القصيدتين، إذ بقدر ما يؤمن النص الأول «في التجلي والتضاد» بأهمية الوجود الإنساني وضرورته، فهو غاية هذا الكون ومركزه الواعي فإن النص الثاني «أرنبة البياض» يشير إلى هزال هذا الحضور، وتفاهته وتأرجحه على خيط رفيع يفصل بين النجاة والهلاك ، وهي نجاة مؤقتة طارئة:

«تحاول حفظ التوازن، يبدو التوازن أمراً دقيقاً
مجرد خيط رفيع، يفرق بين النجاة وبين الهلاك»

ويتولى الاستفهام في النص تفجير هذه البؤرة الأساس في القصيدة:

«فأي مصير تقاذف هذي الحياة؟ وأي حياة تراها تكون؟
وأي هلاك تراه يكون؟»

ألا تكون الحياة هنا مكابدة «سيزيفية» متواصلة؟ صحيح أن أرنبة البياض رديفة الذات الإنسانية نجحت في الهرب، وقد وازنت واستقرت ولكن جمع الكلاب يحاصرها من كل صوب، وإذاً فالهلاك كامن في كل شيء يخاتل حتى ينال الطريدة – على حد تعبير النص.

إن القصيدتين اللتين ضمتهما «حورية العاشق» للشاعر علي عبدالله خليفة تعكسان ضمناً الرؤية الفلسفية للشاعر إزاء ظاهرة التضاد بوصفها بنية رئيسة تنتظم الحياة والكون وأعماق الإنسان والشاعر يؤمن بها ويؤصل لها ويتقصى تفاصيلها. بيد أن هذه الرؤية المتضمنة في قصيدته الأولى «في التجلي والتضاد» لا تتآلف مع مضمون قصيدته الأخرى «أرنبة البياض» التي تنحو صوب نسق رمزي يشع في أكثر من اتجاه، ويمكن أن يستقى منه بعد مطلق وتكون فيه الذات الإنسانية رديفة لأرنبة البياض (عنوان القصيدة)، ويكون وجودها المطارد الخائف حد الرعب جوهرها ومحورها الأساس.. ◇